

وينتهي مفكرنا بضرب المثال، وأنه: ينبغي لنا الاقتداء باليابانيين في المدنية، لأنهم حافظوا على تقاليدهم القومية التي هي قوام بقائهم وأخذوا بحاسن المدنية في أوروبا، وحيث إن عاداتنا القومية ناشئة من الإسلام، وتزدهر به فالضرورة تقضي الاعتصام بالإسلام.⁽¹⁾

وبعد عرضنا لموقف سعيد النورسي من المدنية الغربية، ألا يدفعنا هذا إلى بيان موقفه من الفلسفة الغربية. هذا ما سنحاول إمطة اللثام عنه في الصفحات القادمة؟

موقف سعيد النورسي من الفلسفة الغربية:

بعد أن عرضنا لموقف مفكرنا سعيد النورسي من المدنية الغربية، يجدر بنا أن نشير إلى موقفه من الفلسفة الغربية، وهل هو موقف الرفض؟ أم موقف القبول، وهذا ما سنوضحه من خلال عرضنا.

يشير بديع الزمان إلى أن: العرب النجباء كانوا أمة أمية في الجاهلية، ولكن لما تجلّى الحق فيهم، وتيقظ استعداد حياتهم بمشاهدة الدين المبين، وجهوا رغباتهم وميولهم كلها في معرفة الدين وحده، ولم يكن نظرهم المتوجه إلى الكون من نوع التفضيل الفلسفي، بل نظر استطراد للاستدلال ليس إلا.⁽²⁾

يرى سعيد النورسي: أن دخول طائفة من الإسرائيليات وقسم من الفلسفة اليونانية ضمن دائرة الإسلام وظهورها بزى الدين الجميل شوهدت الأفكار⁽³⁾.

(1) النورسي: سيرة الذاتية، نفس الصفحة.

(2) خديجة النبراي: في يقظة الأمة، ص 67.

(3) النورسي: صيقل الإسلام، 24، خديجة النبراي، في يقظة الأمة، ص 67.

ويعزو النورسي سبب البلبلة في المحيط الإسلامي إلى دخول الفلسفة اليونانية أو على حد تعبيره: لما ترجمت الفلسفة اليونانية في عصر المأمون لضمها إلى الفكر الإسلامي، تلك الفلسفة الناشئة من منبع كثير من الأساطير فشوشت الأفكار إلى حد ما، وفتحت طريقاً من التحقيق إلى التقليد، كما أنها صرفتهم عن الاستنباط بقرائحهم الفطرية من معدن ماء حياة الإسلام إلى الافتقار بالتلمذ على تلك الفلسفة المانعة للكمال.⁽¹⁾

وفي هذا الصدد يعلق أحد الدارسين على فكر النورسي: بأنه من المعلوم أن لكل مفكر منهجاً خاصاً وفكراً متميزاً وله غاية يسعى لها في حياته الفكرية، وهدف يرتبط به من صميم قلبه ارتباطاً وثيقاً. ولأجل البحث عن فكر النورسي واستساغة نهجه وهدفه تسرد مقدمات طويلة. ولكنه من اليسير استخلاص فكر الأستاذ ونهجه وهدفه وغايته في عبارة. إن الغاية الوحيدة للكتب السماوية والدعوة الفريدة للأنبياء كافة هي: إعلان ألوهية خالق الكائنات ووحدانيته وإثبات هذه الدعوة العظمى بالدلائل العلمية والمنطقية والفلسفية.

ويتساءل الكاتب، هل يعني هذا أن للأستاذ النورسي علاقة بالمنطق والفلسفة والعلوم الكونية، ويجيب: أجل: إن الأستاذ النورسي هو منطقي عظيم وفيلسوف قدير ما دام المنطق والفلسفة يتصالحان مع القرآن الكريم وينتهجان صراط خدمة الحق والحقيقة، لأجل إثبات مدى أحقية دعوته العالمية المقدسة. فيأخذ العلم بيمينه ليثبت به مرة أخرى أن القرآن الكريم هو كلام الله الأزلي بأسطع الأدلة والبراهين القاطعة. وكلما تقترب الفلسفة

(1) النورسي: المرجع السابق، ص 305.

لمعنى الحكمة يصبح كل كتاب حكمة عظيمة ومؤلفه حكيماً بارعاً في طريق إثبات البارئ الكريم بالصفات المقدسة التي تليق به.⁽¹⁾

وفي ظننا أنه رغم أهمية هذه الوجهة من النظر إلى أنها تحتاج إلى توقف وإمعان نظر، فليس ثمة شك، أن النورسي صاحب ثقافة موسوعية، أما أن نصفه بأنه منطقي عظيم، وفيلسوف قدير، ففي رأينا أن اهتمام النورسي لم يكن بالمنطق بمعناه اليوناني، وإنما اهتم بالمنطق القرآني، ولذا نجد أن كاتبنا يتحرر في حكمة بقوله: «مادام المنطق والقرآن يتصالحان مع القرآن الكريم»، ومن ثم فالنورسي لم يكن فيلسوفاً أو منطقياً بالمعنى التقليدي.

إذن كاتبنا يرى أن النورسي لا يرفض الفلسفة في حد ذاتها، بقدر ما يرفض الأفكار التي لا تتسق مع تصورات القرآن الكريم.

لقد رأى سعيد النورسي وكانت رؤيته صائبة نافذة، إن أعظم خطر على المسلمين في هذا الزمان، هو فساد القلوب بضلال من الفلسفة والعلوم.⁽²⁾

وقد لاحظ النورسي عدم قدرة أصحاب «الإيمان التقليدي على نقض شبهات الفلسفة المادية أو العلمانية، إن لم يتأثروا هم بسمومها وإيماءاتها، لما يلبسه من التقليد الذي يصرف عن التسلح بالبراهين القرآنية، والأدلة العلمية والحجج العقلية، ولما يعتبره من ضعف أحياناً ونقص أحياناً، وشبهات تؤثر في فعاليته وقوته.. فدعا إلى زيادة هذا الإيمان وتجديده وتقويته واستعمل مصطلح «الإيمان التحقيقي» كبديل عن الإيمان التقليدي، ولا شك أن الإيمان

(1) النورسي: سيرة الذاتية (المجلد التاسع)، ص 30.

(2) محمد رشيد عبيد: فكر النورسي (قراءة معاصرة)، المؤتمر العالمي لبديع الزمان سعيد النورسي، ص 479، اللمعان، ص 158.

الإسلامي ينافي التقليد، وأنه لا بد أن يقوم على أعمدة العلم والعقل بالمفهوم القرآني.. وقد تكون هذه المصطلحات من آثار التصوف في فكر النورسي، خصوصاً كتابات الإمام الرباني، وقد بين النورسي ضرورة الإيمان كما أشار إلى آثاره الخيرة في النفس والفكر والحياة والمجتمع والتاريخ والقدر.⁽¹⁾

وينقد مفكرنا النورسي هؤلاء الذين تأثروا بالفكر المادي في الحضارة الغربية، وقلدوها تقليدًا أعمى، فيقول: يا أسفي ويا ويل لمن ضل بطواغيت الأجناب وعلومهم المادية الطبيعية، ويا خسارة أولئك الذين يقلدونهم تقليدًا أعمى ويتبعونهم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع.⁽²⁾

فالحقائق التي تراها الفلسفة الأوروبية بدهائها الأعور مشوهة زائفة يراها الهدي القرآني واضحة جلية.⁽³⁾

و يبلغ مفكرنا الذروة في نقده للغرب ومحاولة بعث الأمة من مرقدتها: فيقول: فيا أبناء هذا الوطن! لا تحاولوا تقليد الإفرنج بعد كل ما رأيتم من أفكارها الباطلة؟ وتلتحقون بصفوفهم وتنضمون تحت لوائهم بلا شعور؟، فأنتم بهذا تحكمون على أنفسكم وعلى إخوانكم بالإعدام الأبدي.. كونوا راشدين فطنين، إنكم كلما اتبعتموهم في سفاهتهم وضلالتهم ازددتم كذبًا، وافتراءً في دعوى الحمية والتضحية، لأن هذا الاتباع استخفاف بأمّتكم واستهزاء بملتكم.⁽⁴⁾

(1) محمد رشيد عبيد: المرجع السابق، ص 479.

(2) النورسي: المثني العربي، ص 272 عمار جيدل: بديع الزمان واثبات الحقائق الإيمانية، ص 188، اللمعات، ص 184.

(3) النورسي: اللمعات، ص 183.

(4) النورسي: المرجع السابق، ص 184.

ولم يسلم أصحاب المذاهب الطبيعية من نقد مفكرنا، بل يرى أن الطبيعة التي يتعلق بها الطبيعيون ذلك الأمر الموهوم الذي ليس له حقيقة، إن كان ولا بد أنها مالكة لوجود حقيقي خارجي فإن هذا الوجود، إنما هو: صنعة صانع ولن يكون صانعاً وهو نقش ولا يكون نقاشاً، ومجموعة أحكام ولن يكون حاكماً، شريعة فطرية ولن يكون شارعاً، وستار مخلوق للعزة، ولن يكون خالقاً وفطرة منفصلة، ولن يكون فاطراً فاعلاً، ومجموعة قوانين، ولن يكون قادراً، ومسطر ولن يكون مصدرًا.⁽¹⁾

ويعلق المرحوم «الدكتور البهي» على هذه الفلسفة الطبيعية بقوله: إن هذه الفلسفة التي تدعو سيادة الطبيعة، إن لم نقل عبادتها، قد قامت في جو معين حيث تولدت الرغبة في نفوس كثير من العلماء والفلاسفة لمعارضة الكنيسة التي كانت تمتلك نوعاً خاصاً من المعرفة تستغله في معارضة خصومها وهي المعرفة الدينية، فقام هذا الفريق من العلماء والفلاسفة بالهجوم الشديد عليها باسم العلم، وقامت هذه الفلسفة الوضعية على أساس تقديس الطبيعة وحدها مصدرًا للمعرفة اليقينية.⁽²⁾

وعلى هذا الأساس يحذرنا النورسي من الانبهار بالغرب كما فعل السير «أحمد خان» والذي أدى به إلى شعور بالنقص تجاه الغرب.⁽³⁾

(1) النورسي: المرجع نفسه، ص 283.

(2) د. محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، الناشر مكتبة وهبة بالقاهرة، ص 298-299، أيضاً محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة، الناشر دار الشروق، ص 264.

(3) د. أحمد محمود صبحي: هاؤم اقرأوا كايية، ص 37.

لقد شاع السير «أحمد خان» مذهب الدين الطبيعي (Deism) الذي شاع في أوروبا في القرن الثامن عشر ليجرد المسيحية والغيبيات وليتسق في زعمه مع روح العلم، ولا حاجة بنا إلى الرد عليه لأنه لا سبيل إلى إنكار الغيب فهو من أصول الإيمان، وقد ورد في أول سورة البقرة، بل ذكره الله قبل الصلاة وقبل الزكاة وهما من أركان الدين ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: 3].

ولكن الشعور بالدونية تجاه الفكر الأوروبي ساقه إلى هذا الشطط في تطويع الإسلام لروح العلم.⁽¹⁾

أظننا لسنا في حاجة إلى التأكيد على أن بديع الزمان، سعيد النورسي، لم يقبل الفلسفة اليونانية والغربية الحديثة، ويرى أنهما السبب في إحداث البلبل في محيط الحياة الإسلامية، وأنه يعتقد أن القرآن الكريم حافل بالدلائل العقلية والوسائل الإقناعية للتأكيد على حقيقة الألوهية، ويدعو إلى المحافظة على ذاتية الأمة وشخصيتها المميزة.

إشكالية السقوط الحضاري عند النورسي:

المأمل في كتابات النورسي، يجد مفكرنا مهموماً بإشكالية السقوط، الحضاري، ويريد أن يبث القيم والمفاهيم التي تأخذ مجتمعه إلى طريق النور والتقدم. فكان بحق رائداً من رواد المقاومة الفكرية في المجتمع العثماني الحديث، إذ تجسدت في جهوده وراثته الأنبياء في العلم والعمل.⁽²⁾

(1) د. أحمد محمود صبحي: المرجع السابق، ص 38.

(2) د. عمار جيدل: بديع الزمان وإثبات الحقائق الإيمانية، طبعة أولى 2001، ص 8.